بحوث في اللغة العربية: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ١٣ (خريف وشتاء ١٤٣٦ ـ ١٤٣٧هـ. ق/ ١٣٩٤ هـ. ش)، ص ٧٧ ـ ٩٠

التناوب ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم

(دراسة في سورة "الأعراف" نموذجا)[١]

صلاح الدين عبدي ❖
جواد محمدزاده ❖❖

الملخص

امتاز القرآن الكريم بأسلوبه الذي يختص به عن سائر النصوص الدينية فنرى فيه أن لكل حرف وكلمة وجملة دلالات جديدة، لأنه يعطي للكلمة ما لا تعطيه كلمة أخرى. كثيرا ما نرى أن القرآن الكريم يستخدم التقنيات المنزاحة عن المعيار اللغوي ومن أهم هذه التقنيات المنزاحة "التناوب" الذي يكمن هدفه الرئيسي في توليد معانٍ مبتكرة بالعدول عن النظام اللغوي أو عن الأصل وهو يعني إحلال كلمة أو جملة محل غيرها مما يناظرها فتؤدي معناها.

قد أصبح مفهوم "التناوب" ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم بسبب تواترها في الآيات الكريمة واستعان القرآن الكريم بهذه التقنية ليحقق الغايتين معا، أي: الجانب الدلالي وهو التوسع في المعاني والتنوع الأسلوبي وهذا أبرز سمة أسلوبية اختص بها القرآن. إذن، قمنا بدراسة هذا المفهوم في سورة "الأعراف" المباركة على المنهج الوصفي التطبيقي، وقد درسنا حقيقية أنماط من التناوب في الفعل (التضمين النحوي) والاسم والصيغ والجملة، حيث تبين لنا أن التناوب الفعلي أو التضمين قد شمل مساحة أكثر بالنسبة إلى الأنماط الثلاثة الأخرى وقد ظهر أن هناك صلة ما بين الكلمتين المنوب عنها والنائبة وقد بني أكثر العلاقات على أساس الترادف واللزوم. كذلك تبين لنا أن السياق ـ لغوياً كان أم مقامياً ـ ركن من الأركان الرئيسة لكشف التناوب والمعاني الثانوية التي تكمن في الكلمة أو الجملة المنتقاة.

الكلمات المفتاحية: سورة الأعراف، التناوب، التضمين، العدول، البنية العميقة والسياق.

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٤/٦/٢٨هـ. ش ؛ تاريخ القبول: ١٣٩٥/٥/١٠هـ. ش.

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «بوعلي سينا» Email: s.abdi57@gmail.com
❖❖ طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «بوعلي سينا». Email: jauadmohammadzade59@yahoo.com

المقدمة

إن القرآن الكريم يشمل نصا ذا قوّة وإبداع، ويسلك في تراكيبه ونظمه مسلكا واحدا، وهو النص السماوي المعجز الذي لا يستطيع أحد أن يجاريه بأسلوبه ونظمه أو ببلاغته وفصاحته لأن الله تعالى قد اختار ألفاظ القرآن وتراكيبه في أحسن صورة وأدق نظم وكما يقال إن كل كلمة تحمل في طيّها معنى لا تحمله كلمة أخرى وأحيانا تترادف الكلمات والتراكيب فتأتي بمعنى واحد وتختلف في البناء، وإذا نظرنا إلى السياق الذي وردت الآية فيه نجد فلسفة هذا الاختلاف والمعاني الدقيقة والخفية في بطنها.

نجد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم اختلافاً في معنى الكلمة الواحدة في البناء والصيغة بإضافة كلمة أو حرف إليها، كقوله تعالى: ﴿**إن أَحسَنتُم أحسَنتُم لِأَنفُسِكم**﴾ (الإسراء: ٧). فالفعلان متحدان في الصيغة والمادة وإسنادهما إلى ضمير المخاطبين (أحسنتم)، ومع ذلك اختلف معناهما لدخول الثاني في علاقة جديدة؛ إذ تعلق به جار ومجرور (لِأَنفُسِكم)، فاختلف معناه عن الأول، ولذلك لايصح أن يقال: «إن أحسنتم لأنفسكم أحسنتم لأنفسكم»، لأن معنى الفعلين سيكون واحداً في الحالتين. كما لا يصح أن يقال: «إن أحسنتم أحسنتم»، إلا أن يضمر في الثاني شيء ليس في الأول كأن يكون المقصود: إن أحسنتم أحسنتم (بحق) مثلا، وهنا يلزم في النطق تغيير التنغيم حتى يبرز هذا المعنى المضمر (عبد اللطيف، ٢٠٠٠م. ص ١٦).

إن الميزة الأولى للنص القرآني هي عدوله عن المألوف؛ بعبارة أخرى كثيراً ما يخرج القرآن الكريم في تراكيبه وألفاظه من المتعارف المألوف في القانون اللغوي، ويرفع كلامه من المستوى العادي إلى المستوى الفني. توجد طرق كثيرة لإيراد الكلام على المستوى الفني أو العدولي، منها ظاهرة التناوب التي تعدّ من أكثر الظواهر النحوية تردداً وأوسعها انتشاراً في القرآن الكريم وقد ذكر النحويون كثيراً من صور تلك الظاهرة في القرآن الكريم ولكن لم يعالجوها من أجل تحليلها والوقوف على دورها التعبيري والتأثيري في السياقات التي وردت فيها، بل من أجل التمثيل بها، كما جاء بها ابن قتيبة في كتابه *تأويل مشكل القرآن*. وبما أن التناوب أصبح ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم اخترنا سورةً من سوره الكريمة وعالجنا هذه الظاهرة فيها وخصصناها بالدراسة والتحليل. أمّا هدف هذه الدراسة فيكمن في تفسير ظاهرة التناوب وتحليل أنواعها حيث بينت الدراسة أن ظاهرة التناوب في القرآن الكريم لا تأتي إلا للتوسع في المعاني ولا تدل إلا على مرونة واتساع في قواعد اللغة.

إذن، قمنا بدراسة هذا المفهوم في سورة الأعراف المباركة وقد كان منهجنا في كتابة هذه الدراسة المنهج الوصفي التطبيقي الذي يقوم على الدراسة والبحث في الأسلوب القرآني للوقوف على أسرار التقنيات اللغوية فيه معتمداً على كتب التفسير والبلاغة والنحو واتجه البحث في إطارين: الإطار الأول وهو الإطار النظري ندرس فيه مصطلح التناوب لغة واصطلاحا ونكشف عن علاقته بعلم الأسلوب وقد تحدّثنا فيه عن نشأة مفهومه عند المحدثين وبيان أشكاله وأنواعه. أمّا الإطار الثاني فهو عبارة عن التطبيق العلمي لما سبقت الإشارة إليه في الإطار الأول؛ حيث يتم البحث في سورة الأعراف المباركة للكشف عن أسرار البنى التحتية بين السورة وآياتها. وفيما يبدو، إن هذه الدراسة فريدة بنوعها؛ لأنها كتبت لتغطي مساحة دراسية لم تملأ من قبل الدراسين في فرع الأدب العربي ولأنها اختصت بدراسة التناوب وهو ظاهرة أسلوبية شائعة في القرآن الكريم بأنواعه المختلفة التي لم تؤثر في جذب انتباه القارئ فحسب، بل تعين أسلوب القرآن الكريم في إيراد المعاني بطرق ليس لها نظير.

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن عدة أسئلة رئيسة وهي:

١ ـ أي نمط من أنماط التناوب يعدّ أكثر انتشاراً في السورة؟

٢ـ ما هي جمالية التناوب والغرض الرئيس من هذا العدول في النص القرآني؟

٢ ـ خلفية البحث

لم يسبق لدراسة أن تتناول التناوب في سورة "الأعراف". رغم ذلك ثمة بحوث سابقة على هذا البحث قد عرضت للتناوب في الأفعال والحروف، نذكر منها:

ـ «*ظاهرة التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر*»، هذا المقال كتبه مالك يحيا وطبع سنة ٢٠١٠م في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة في العدد الثاني. تحاول هذه الدراسة أن توضح أن ظاهرة التناوب اللغوي التي وردت في النصوص اللغوية تشيع في العربية، إذ قد تأخذ صيغة صرفية ما الأحكام النحوية الدلالية لصيغة أخرى وتتبادل معها مبنى ومعنى.

ـ «*حروف الجر بين النيابة والتضمين*»، كتب هذا المقال أحمد مطر المطية، وطبع سنة ٢٠٠٨م في العدد الـ١١٢ في مجلة التراث العربي بدمشق. قد أشار الكاتب في هذا المقال إلى تعاريف التضمين والنيابة من قبَل النحويين والبلاغيين وجاء بأمثلة من القرآن الكريم.

ـ «*ظاهرة التضمين في القرآن*»، كتب هذا المقال الكاتبان: خليل پروينى وجميل جعفري، وطبع سنة ٢٠٠٤م في العدد الـ١١ في مجلة العلوم الانسانية. قام الكاتبان في هذه المقالة بتحليل مفهوم التضمين فدرسا حد التضمين الكوفي والبصري وصورهما المختلفة وكذلك دور التضمين الإيجابي.

ـ «*تناوب حروف الجر في ديوان امرئ القيس دراسة وصفية تحليلية*»، كتب هذا المقال أحمد عبد الرحمن الذنيبات، ونضال محمود الفراية. طبع في مجلة كلية الآداب واللغات، سنة ٢٠١١م في العدد الـ٩. في هذه الدراسة لم يقتصر الباحثان على الشعر وحده، بل قرناه بنماذج من الآيات الشريفة في القرآن الكريم.

ـ «*التناوب الدلالي بين صيغ الوصف العامل*»، كتاب ألّفه طه محمد الجمدي، وطبع في نشر دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٩٨م. في هذا الكتاب يتناول الدكتور الجمدي نماذج من العدول في صيغ المشتقات تحت عناوين أخرى تناقش كلها دلالة التنويع بين الصيغتين المشتقتين. إذا أمعنا النظر في هذه الدراسات ـ رغم مساعيهم الجيدة ـ نجد أنهم تطرقوا بشكل إجمالي. لذا، قد اختصت هذه الدراسة بهذه الظاهرة بأشكالها المتعددة في سورة الأعراف المباركة وعالجتها من أجل تحليلها والوقوف على دورها التعبيري والتأثيري في السياقات التي وردت فيها.

٣ ـ الإطار النظري

التناوب في اللغة فيه معنى التبادل وتقسيم الأمر الواحد وتوزيعه، وفيه ـ أيضاً ـ معنى الإحلال، أي إحلال شيء محل شيء آخر وجاء أيضاً في *لسان العرب*: «**تناوب القوم الماء، أي تقاسموه على المقلة وناب الشيء عن الشيء ينوب: قام مقامه**» (ابن منظور، د.ت. «نوب»). وفي الاصطلاح هو إحلال كلمة ـ قد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً ـ محل غيرها مما يناظرها، فتؤدي معناها. قيمة التناوب أنها لا تثبت المعنى الكامن في الكلمة الواردة في السياق فحسب، بل تتم في ذات الوقت عملية استحضار للكلمة المنوب عنها، وما ينجرّ عنها من معان، فتحدث عملية مزاوجة بين الكلمتين المنوب عنها والنائبة ومن ثمَّ تزاوج المعنيين، مما يؤدّي في النهاية إلى إثراء المعنى (سليمان، ٢٠٠٨م. ص ٩١).

أما الأسئلة التي يجب الانتباه بها في عملية التناوب فهي: ما هو القانون أو المعيار الذي به يتحقق التناوب؟ ما الأصل أو القاعدة التي تتم النيابة عنها؟ هل هي القاعدة المعيارية المتواضع عليها أو أنها القاعدة السياقية التي يفرضها السياق اللغوي؟ ما هي العلاقة بين الكلمتين المنوب عنها والنائبة؟

يعرّف المعيار على أنه النظام اللغوي الذي ينبغي على المتكلم إتباعه ليحقق أداءا لغوياً فصيحاً، واعتماداً على هذا المعيار تحدّد درجة الفصاحة عند كل فرد، ويطلق على هذا المعيار الذي يخرج عنه العدول بمسميات كثيرة منها: «**الاستعمال الدارج والمألوف والشائع والوضع الجاري والدرجة الصفر والسنن اللغوية**» (سامح ربابعة، ٢٠٠٣م، ص ٣٥). إن مصطلح "درجة الصفر للكتابة" الذي أطلق عليه رولان بارت هو مفهوم حديث يلتقي مع حديث القدماء عن "الأصل" و"أصل الوضع" وإن درجة الصفر صفة تطلق على الخطاب الذي تدل فيه كل كلمة على ما وضعت له في أصل اللغة (المصدر نفسه، ص ٥٥).

لعل موازنة بين عبارتين مثل: "الدم الأحمر" و"الدم الأبيض" تظهر الفرق الكبير بين المعيار والانحراف عنه، "فالدم الأحمر" عبارة يظهر فيها الأصل ودرجة الصفر؛ لأنها تمتلك معنى معجميا فقط ولكن عبارة "الدم الأبيض" تعد خروجاً عن الأصل اللغوي المعتاد وهنا نابت كلمة "أبيض" مناب كلمة "الأحمر" وهذا هو التناوب. أمّا العدول عن الأصل فهو مظهر من مظاهر الأسلوبية، حيث يشمل جميع مستويات اللغة، لاسيما المستوى النحوي.

الغرض من النحو هو النحو التوليدي التحويلي الذي ملخص نظرياته ينبني على أن هناك تركيبات أساسية تشترك فيها اللغات جميعاً وأنّ وظيفة القواعد التحويلية في هذه النظرية تحويل تلك التراكيب الأساسية إلى تراكيب سطحية وهي التراكيب المنطوقة فعلاً، ويسمعها السامع وعملية وصف العلاقة بين التركيب الباطني والتركيب الظاهري تسمى تحويلاً والعلاقة بين التركيبين تشبه عملية كيمياوية يتم التعبير عنها بمعادلة أحد طرفيها المواد قبل تفاعلها " input" والطرف الآخر هو الناتج بعد التفاعل " output" وبمعنى آخر فإنها القواعد التي تضفي على كل جملة تولدها تركيبين: أحدهما باطني أساسي والآخر ظاهري سطحي وتربط التركيبين بنظام خاص (المنصوري، ٢٠١٣م. ص ٢٣٦).

إن الكفاية اللغوية والأداء الكلامي من الركائز الأصلية في معرفة التناوب والمقصود بالبنية العميقة هو المعنى الكامن في نفس المتكلم بلغته الأم ومقياسه المقدرة أو الكفاية اللغوية أما البنية السطحية فهي ما ينطقه الإنسان فعلا ويمثلها الأداء الفعلي للكلام (ميشال، ١٩٨٦م. ص ٢٦ ـ ٢٧). أمّا السؤال الرئيسي في مسألة التناوب فهو كيف نفهم أن هناك تناوباً في الكلمة أو الجملة؟

نفهم عملية التناوب إما عن طريق القواعد اللغوية الحاسمة في علم النحو وإما عن طريق السياق. قد لاحظ فان ديك van Dijk أن الجملة تركيب شديد التعقيد يستمد وجوده مما يوجد أمامه وبعده، ووصفُ الجملة وحده غيرُ كافٍ، ولابد من أن يتصدّى النحو لدراسة بنية أكبر هي النص. فقولنا "تلك الطاولة صاخبة" لو وردت وحدها دون أن توضع في سياق لما كان لها أي معنى مع أنها من الناحية النحوية مقبولة. على أننا لو كنا نجلس في مقصف، وكان الجالسون حول الطاولة يضحكون في صخب، ثم قلنا هذه الجملة مشيرين إليها فإن المعنى يغدو مفهوماً جداً مع أن التركيب النحوي للجملة لم يتغير في قليل أو كثير. بناء على هذا فإن المقام يجعل من التركيب المرفوض تركيبا مقبولا ذا معنى (محمود خليل، ٢٠١١م. ص ١٦١).

فالكلمة ـ حسب ما يرون ـ هي الموجودة في السياق، بمعنى أنّه لا يتحدد معناها تحديدًا دقيقًا إلا من خلاله، وهي لا تدل مستقلةً بنفسها على شيء. قال اللساني الفرنسي ميلي: «**إن الكلمة الحقيقية هي الكلمة في السياق**» (حسام الدين، ٢٠٠١م. ص ٤٨). كان مفهوم السياق متضحا عند نقاد العرب القدامى ومنهم عبد القاهر الجرجاني حيث قال في موضع: «**فلو كانت الكلمة إذا حسنتْ**

من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إمّا أن تحسن أبدًا أو لا تحسن أبدًا، ولم تَر قولاً يضطرب على قائله حتى لا يدري كيف يعبّر، وكيف يُورد ويصدّر» (الجرجاني، ١٩٧٨م. ص ٩٦).

بما أن التناوب يعدّ انحرافاً عن الأصل فينبغي على المؤلف معرفة وافية باللغة الأصلية وفي عملية التناوب هناك احتراس يجدر بالمبدع أن يأخذه بعين الاعتبار، وهذا الاحتراس متمثل في أن ليس كل انحراف يظهر قيمة فنية تكشف عن القدرة على الإبداع والخلق، إذ لا بد أن يصاحبه وظيفة جمالية وتعبيرية وكما قال شفيعي كدكني في كتابه *موسيقى شعر* يجب على أي ظاهرة عدولية أن يكون متصفاً بميزتين: الأول: مراعاة الأصل الجمالي. والغرض منه أن هذا التجاوز يسبب شعوراً جمالياً لدى القارئ. والثاني: صميم الإيصال وهو يتيح للمخاطب فرصة ليفهم احساس الكاتب في حدود الشعر (شفيعي كدكني، ١٣٨٦، ص ١٣).

٤ ـ الإطار التطبيقي

تأخذ ظاهرة التناوب في سورة الأعراف المباركة أشكالا متعددة، إذ تظهر على مستوى بناء اللفظة المفردة، كما تظهر على مستوى الوظيفة النحوية، أما الأولى فقد تحدثنا عنها بإسهاب في بحثنا عن التناوب في الأفعال والأسماء وأما الثانية فإنها تدخل في نطاق ما أطلق عليه التناوب في الصيغ والتناوب في الجمل.

٤ ـ ١ـ التناوب في الأفعال

من الظواهر اللغوية المشهورة التي يلعب فيها المعنى دوراً بارزاً ظاهرة التناوب في الأفعال والتي يسمى أيضا بالتضمين النحوي وهو يعني إشراب فعل معنى فعل آخر ليعامل معاملته، ويجري مجراه كما أشار إليه ابن هشام: «**قد يشربون لفظاً معنى لفظٍ فيُعطونه حكمه، وذلك يسمّى تضمينا وفائدته: أن تؤدي كلمةٌ مؤدّى كلمتين**» (ابن هشام، لاتا. ص ٣٠٥). قال الزمخشري: ويضمنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه مع إرادة معنى المتضمن والغرض من التضمين إعطاء مجموع المعنيين (الزمخشري،١٩٩٨م، ص ٥٨١).

إن المعيار الرئيسي في التضمين هو أننا لا نقول إن المعنى اللغوي السابق هو عين المعنى الاصطلاحي وإنما نقول أن هناك صلة ما بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي مهما كانت طبيعة تلك الصلة، بعبارة أخرى إن المعنى اللغوي يعدّ قاعدة ينطلق منها المعنى الاصطلاحي للتضمين و«**هذا لا يعني أن يتجرد الفعل الأول من معناه ليكسب معنى جديداً، وإنما القصد أن يجمع هذا الفعل بالتضمين بين الدلالتين: دلالته الأولى، ودلالة الفعل الذي أشرب معناه**» (الزعبلاوي، ١٩٨٠م، ص ٦٢). فباب التضمين النحوي ما هو إلا دراسة للمعنى؛ لأن الاعتماد على الألفاظ المنظومة فحسب لا يكفي في تفسير الأسلوب.

جاء هذا النمط من التناوب في هذه السورة الكريمة بأشكال مختلفة منها قوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يظْلِمُونَ**﴾ (الأعراف:). كما نلاحظ أن الفعل "يظلمون" عدّي بالباء ونحن لا نقول: ظلمت به وإنما: ظلمته، لكنه هنا بمعنى الجحود والتكذيب، لهذا جاء سبحانه بالباء إيذاناً بأن فعل "يظلم بآياتنا" هنا في معنى التكذيب أي كذّبوا بها وجحدوا بها كما جيء بهذا الفعل في الآية ١٠٣ من هذه السورة الكريمة حيث يقال: ﴿**فَظَلَمُواْ بِهَا**﴾ (الأعراف: ١٠٣) «**والظلم هنا ضد العدل أي يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقها من الصدق وضمّن "يظلمون" معنى يكذّبون فلذلك عدّي بالباء**» (ابن عاشور، ١٩٨٤م.ص ٣٢). فكأنّه قيل: بما كانوا يظلمون ويكذّبون بآياتنا على حد قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ (النمل: ١٤)، أما العلاقة بين الظلم والتكذيب هي اللزوم؛ لأنه كل تكذيب لا محالة ظلم وجور؛ لأن الذي يكذّب بالدين وبالآيات، يظلم نفسه وآخرين في تحقيق هدفه الباطل.

أما المثال الآخر للتضمين النحوي فهو الآية الكريمة: ﴿**فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الأعراف: ٧٧)، قال الزمخشري في معنى فعل عتوا عن: تولّوا عنه واستكبروا عن امتثال أمره (الزمخشري، ١٩٨٨م، ص ٤٦٦) إن فعل "عتا يعتو عتواً وعتياً" لازم لا يتعدى وتعديته بحرف "عن" حملته على التضمين، حيث يأخذ معنى فعل استكبر وتولى.

أمّا التضمين النحوي في هذه السورة الكريمة فلا ينحصر في الأفعال التي تأتي مع حروف الجر الأخرى بل يتعدى إلى تضمين فعل معنى آخر كقوله تعالى: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا**﴾ (الأعراف: ٨٤). فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية عذاب قوم لوط ونوعه بقوله (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) أي: أنزل عليهم نوعا من الحجارة يشبه المطر وعدي بـ"على" لأنه ضمّن معنى أرسلنا كما قال الزمخشري: «**وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا، يعني الحجارة**» (الزمخشري،١٩٩٨م. ص ٤٧١). وأكده بقوله مطرا ونكر تهويلا وتعظيمًا له، مما سبب عنه الأمر بالنظر والتأمل في هول عذابهم وعاقبتهم فقال: (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) أما الفرق بين "مطر وأمطر" فهو أن جملة "مطرتهم العذاب" بمعنى نزل عليهم المطر وأمطر بمعنى نزل عليهم من الجو ما يشبه المطر وليس هو بمطر، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمطَرنا عَلَيهِم حِجَارَةً مِن سِجّيلٍ**﴾ (الحجر: ٧٤).

وقيل أن التفرقة بين مُطِرَ وأمطِرَ، أنّ مُطرَ للرّحمة وأمطر للعذاب وقد كثر الإمطار في معنى العذاب (ابن عاشور،١٩٨٤م. ص ٢٣٧). وإن الله تعالى شبه العذاب بالمطر المدرار وبدل أن يقول: وأرسلنا عليهم المطر قال: وأمطرنا والغرض من هذا التناوب إبراز تصوير العذاب بأحسن شكل وأنه تعالى قد صوّر لنا قطرات المطر من نوع الكبريت قطرة فقطرة حتى يؤثر على المخاطب تأثيرا وافرا ويتمكن في باله كيف كان عاقبة من يقترف معاصي الله وكذّب رسله.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ (الأعراف: ٧٨). في هذه الآية، تحقق التناوب في فعل "أخذ" والله تعالى بدل أن يقول: "أهلكتهم الرجفة" قال: "فأخذتهم". كما نعلم أن الأخذ أصله تناول الشيء باليد «**الأخذ: خلاف العطاء، وهو أيضا التناول. أخذت الشيء آخذه أخذا: تناولته، وأخذه يأخذه أخذا**» (ابن منظور، د.ت، «أخذ»). ويستعمل أيضاً في القهر وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخذ (ابن عاشور،١٩٨٤م. ص ٢٢٧). إذن، فعل "أخذ" هنا كلمة تؤدي مؤدّى كلمتين: الأخذ ثم الإهلاك. وإذا أمعنا النظر في سورة الأعراف المباركة نرى أن هذا الفعل اكتسب دلالة أخرى حسب السياق وجاء بمعنى فعل آخر كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ**﴾ (الأعراف: ١٣٠)، فكلمة "أخذ" اكتسبت دلالة أخرى وأدت معنى فعل آخر في السياق وبالتالي هي بمعنى ابتلى وامتحن وعدّي بالباء.

في عملية فهم المعنى، يكون للمقام والموقعية دور هام وإنما تنكشف معاني الكلمة حسب موقعيتها ويظهر تعدد مدلولاتها مع تغيير صياغتها في تراكيبها فمزية المقام أكشف وأوضح في بيان معناها. وهذه أفعال "ترى وتنظر" في مساقاتها المتعددة في هذه السورة الكريمة: ﴿**وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ (الأعراف: ١٤٣). في تفسير هذه الآية يجب أن نلاحظ معنى "الرؤية" ومعنى "النظر" وما يوجد من الاختلاف بينهما. إن النظر لا إدراك معه لكن الرؤية هي الإدراك (الزمخشري،١٩٩٨م، ص ٥٠٢). بعبارة أخرى إن الرؤية عام ويشمل الإدراك ببعض الحواس لكن النظر هو الخاص ولا يشمل الإدراك وينحصر في الحاسة البصرية ؛ لهذا السبب نرى أن الله تعالى قال في هذه الآية "لن تراني" ولم يقل "لن تنظر إلي" ولا يمكن للإنسان رؤية ذات الله المقدسة لأن هذه البنية البشرية لا طاقة لها إذن، نرى أن الله تجلى لما هو أقوى منه وهو الجبل «**فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر اندك الجبل وتفتت**» (الصابوني، ١٩٨١م، ص ٤٧٠).

إن القرائن تحدد معنى الكلمة التي يوظّفها التركيب وهذه القرائن هي التي تساعدنا في معرفة التناوب في الأفعال. على سبيل المثال قال تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف: ٨٠). إذا أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة نرى أن فعل "تأتون" لم يأت في معناه الحقيقي الوضعي؛ لأن كلمة "الفاحشة" ليست من الأشياء التي تستحق الذهاب إليها، بل تضمن معنى فعل آخر وهو "تمارس" أي: أتمارسون الفاحشة. أما السؤال فهو: لماذا عدل الله تعالى عن استخدام فعل "تمارسون" إلى استخدام فعل "تأتون"؟ إذا رأينا إلى معاجم اللغة نرى أن فعل "أتى" مصدره الإتيان أي: المجيء وإذا أخذ هذا الفعل مفعولاً به يضمن معنى وافق مثل أتيته على ذلك الأمر: أي وافقته وطاوعته (الزبيدي، د.ت، «أتا»). وقيل أيضاً: «**المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيء بسهولة**» (الراغب، د.ت. «أتى») وأتى المرأة بمعنى "باشرها وجامعها" والآية التي تصدّق رأينا قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا تَطَهَّرنَ فَأْتُوهُنَّ مِن حَيثُ أَمَرَكمُ اللهُ**﴾ (البقرة: ٢٢٢) لذا؛ نفهم من هذه الآية أن قوم لوط عليه السلام كانوا يمارسون هذا العمل القبيح بسهولة وعن ميل؛ فجمع التضمين المعنيين: الإقبال عليه وقبوله.

إن النوع الآخر من التناوب في الأفعال هو تضمين فعل معنى الفعل الناسخ فيتعدّى إلى مفعولين، أصلهما مبتدأ وخبر ويشيع في الصيرورة؛ كقوله تعالى: ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ (الأعراف: ١٦٠) نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن فعل "ظلل" هنا بمعنى "جعل" لذلك عدّي بالمفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وهما: (عليهم الغمام) كما نرى أن الله تعالى عدل عن استخدام فعل "جعل" إلى استخدام فعل "ظلل" وما هو الغرض من هذا العدول؟ إذا دققنا النظر إلى سياق الآية نرى أنه لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم بما أسبغ عليهم من النعم فقال: (وظَلّلنَا عليهم الغمام) ولم يقل (وجعلنا عليهم السحاب) وعلينا بالدقة إلى الفرق بين الكلمتين: (الغمام والسحاب). إن الغمام هو جمع غمامة، سمّي بذلك لأنه يغم السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التيه ليقيهم حرّ الشمس (ابن كثير،١٩٩٧م، ص ٢٦٦)، أمّا السحاب من السَّحب وأصل السَّحب الجرّ كسحب الذيل والإنسان على الوجه ومنه السّحاب إمّا لجرّ الريح له أو لِجرّه الماءَ والسّحاب الغيم فيها ماءٌ (الراغب، د.ت. «سحب») إذن، يصبح معنى هذه الآية: وجعلنا هذا الغمام ظليلا عليهم في التيه ومن ثم أن هذا السحاب لم يأت إلا لوقاية القوم حرّ الشمس؛ فجاء الله تعالى بفعل "ظلل" بدل فعل "جعل" ليرينا شدة تلاؤم اللفظ مع المعنى.

النموذج الآخر لهذا النوع من التناوب قوله تعالى: ﴿**تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا**﴾ (الأعراف: ٧٤) نلاحظ أن فعل "تنحتون" يضمن معنى ما يتعدّى لاثنين، أي: وتتخذون الجبال بيوتاً بالنحت أو تصيرونها بيوتاً بالنحت كما أشار إليه القرطبي: «**اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم**» (القرطبي،٢٠٠٦م، ص ٢٣٩)، أمّا السؤال الرئيسي فهو: لماذا لم يقل الله تعالى (وتتخذون الجبال بيوتاً) وعدل عن هذا الفعل إلى استخدام فعل "تنحتون"؟ تشير المعاجم اللغوية إلى أن فعل (تنحت) من النحت أي: نحت الحجرَ والخشبَ ونحوهما من الأجسام الصلبة (الراغب، د.ت، «نحت») والجبال من الأجسام الصلبة الملتوية مع الصخور الغليظة وبناء البيوت من هذه الجبال عمل شاق جدا وهم صيّروا الجبال بيوتاً بالنحت لتقيهم هذه البيوت المنحوتة من الجبال من البرودة لطول أعمارهم لأنه قيل: كانوا يسكنون في الصيف قصوراً، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال (الزمخشري، ١٩٩٨م، ص ٤٦٥).

٤ ـ ٢ـ التناوب في الأسماء

تعدّ ظاهرة التناوب بين الأسماء من الظوهر الأسلوبية والغرض منها ورود اسم في الآية بديلا عن نظير له ولا يعني ذلك أن أي اسم من الأسماء يصلح لأن ينوب عن غيره، إذ لابد أن تكون هناك مشابهة أو علاقة بين الاسم النائب الوارد في السياق والآخر

المنوب عنه (سليمان، ٢٠٠٨م، ص ١١٣). جاء هذا النوع في مواضع من هذه السورة المباركة، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾ (الأعراف: 179). نلاحظ أن التناوب في تركيب (لهم قلوب لا يفقهون بها) والقياس لا يقال: القلب يفهم بل نقول: العقل يفهم ويدرك، والقلوب اسم لموقع العقول. «**والمراد منها هنا الألباب والعقول، والعرب تطلق القلب على اللحمة الصنوبرية، وتطلقه على الإدراك والعقل، ولا يكادون يطلقونه على غير ذلك بالنسبة للإنسان وذلك غالب كلامهم على الحيوان، وهو المراد هنا، ومقره الدماغ لا محالة ولكن القلب هو الذي يمده بالقوة التي بها عمل الإدراك**» (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ص ٢٥٥). طبقا لقانون المصاحبة اللفظية نقول: (لهم عقول لا يفقهون بها) لكن عدل الله تعالى عن هذا القانون لنقطة دلالية لا يمكن لكلمة عقل أن تعبّر عنها. والقرينة التي تسوقنا لاختيار التناوب في (القلب) هنا فعل يفقهون. الفقه في الأصل اللغوي هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم والفِقه هو العلمُ بأحكام الشريعة وفَقه أي: فهم (الراغب، د.ت. «ف‌ق‌ه»). على أساس هذه القرينة، نرى أن الإتيان بالقلوب هنا بدل العقول أفضل؛ لأن فهم أحكام الشريعة والتأمل في الوحدانية وصدق الرسول كلها لا يمكن انحصارها بالإدراك العقلي دون إدراكها بالقلب والقلب كما قيل هو الذي يمده بالقوة التي بها عمل الإدراك.

تكرر هذا النوع في موضع آخر من هذه السورة المباركة حيث قال الله تعالى: ﴿**وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾ (الأعراف: ١٠٠) كما نلاحظ أنّ الله تعالى جاء بالقلوب ولم يأت بالآذان وفعل (لا يسمعون) هو القرينة التي تدلنا على أن القلب هنا بمعنى الأذن، لكن ما هو الغرض الرئيسي لهذا العدول في الآية الكريمة؟ جاء الله تعالى بالقلب؛ لأنّه مكان للحفظ والفهم وهذا يعني أنّ الكفار لا يفهمون ما يسمعون. إن سياق الموقف هنا ينبني على الكناية التعريضية للكفار الذين جعلهم الله تعالى في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون صوتاً، تهكماً وإزراءً عليهم؛ لأنّ المؤمنين هم الذين يفهمون ما يسمع من الكلام ويقبلونه ويعملون به دون الكفار الذين قد يسمعون لكن لا يفهمون.

وكذلك من التناوب الاسمي ما ورد في قوله تعالى: ﴿**حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾ (الأعراف: ١٠٥) كما نرى أنَّ اسم (حقيق) عدّي بـ(على)؛ ولا يقال: "فلان حقيق على الإكرام" بل "حقيق بالإكرام" وهو حقيق به ومحقوق به أي: جدير وخليق به (الزبيدي، د.ت. «ح‌ق‌ق») ولكن لما كان الحقيق هنا في معنى "حريص" جاء بالحرف (على) إيذاناً وإشعاراً بأنَّه في معناه؛ لأنه قد روي أن عدوّ الله فرعون قال له لّما قال ﴿**إِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، كذّبتَ فقال: أنا حقيق على قول الحق أي: واجب علي قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به (الزمخشري، ١٩٨٨م، ص ٤٨٤) وإنما القصد بإتيان هذه الكلمة بدل كلمة "حريص" هو أن يجمع هذا الاسم بالتناوب بين الدلالتين: دلالته الأولى، وهي الخليق ودلالة الاسم الذي أشرب معناه وهي الحرص والوجوب.

ومنه أيضاً قوله تعالى على لسان هارون عليه السلام عندما يرى في وجه أخيه موسى عليه السلام الغضب حيث قال: ﴿**وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي**﴾ (الأعراف: ١٥٠). إن شاهدَ التناوب في هذه الآية الكريمة هو تركيب "ابنَ أمَّ". كما نعلم أن الله سبحانه عدل عن "يا أخي" إلى ذكر كلمة "ابن أم"؛ لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع بلبان واحد (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ص ١١٧) لما رأى هارون عليه السلام في وجه أخيه الغضب والحدة لعبادة اليهود، وهم عاكفون على عبادة العجل، سلك في خطابه مسلك الاستعطاف لإزالة ثورة الغضب عن نفس موسى عليه السلام فابتدر أخاه بالنداء "ابن أم" وخص الأم بالإضافة استعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه «**وليس لما قيل بأنه كان أخاه لأمه بل على أنهما كانا شقيقين**» (ابن كثير، ١٩٩٧م، ص ٤٧٧).

إن من أهم أغراض النيابة التوسّع في المعنى، فالإتيان بنائب المصدر قد يوسّع المعنى توسيعا لا يؤدّيه ذكر المصدر وذلك كالمجيء بصفة المصدر بدلا منه فإنك إذا حذفت المصدر وجئتَ بصفته فربّما احتمل معنى جديدا لم يكن ذكر المصدر يفيده ولا يحتمله وقد يكون التوسع على نحو آخر، وذلك أن يؤتى بملاقي الفعل في الاشتقاق فنكتسب معنيين (السامرائي،٢٠٠٣م، ص ١٣٨). وذلك نحو قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ (الأعراف: ١٦٤) كما نلاحظ، فقد جاء تعالى بالوصف (معذّب) لكن لم يجئ بمصدره، والقياس أن يقول: معذِّبهم تعذيبا شديدا؛ لأن مصدر فعل عذَّب هو التعذيب كعلّم تعليم، أما العذاب فهو مصدر (عذب) مثل خرب خرابا فجاء بالوصف (معذّب) ولكن لم يجيء بمصدره فجمع معنيين في آن واحد والمعنى: الله معذِّبهم فيعذبوا عذابا شديدا وقد جمع المعنيين؛ التعذيب والعذاب في آن واحد والمعنى أن الله يريد أن يعذِّبهم ثم يريدهم بعد ذلك أن يعذبوا هم بأنفسهم أي دون استئصالهم بالمرة لأن التعذيب هو عذاب الاستئصال والعذاب دون الاستئصال وهو الإيجاع الشديد (الراغب، د.ت، «عذب»).

٤ ـ٣ـ التناوب في الصيغ

تجمع هذه السورة المباركة بعض مواطن التناوب في مجال الصيغ (المصدر، والجملة والعدد) ونود فيما يلي أن نتوقف إزاء بعض هذه المواطن. نجد تلك الشواهد ـ على سبيل المثال ـ في قوله ﷻ: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**﴾ (الأعراف: ٤)، كما نرى أن الله تعالى جاء بكلمة "بياتا" مصدراً وقع موقع الحال بمعنى بائتين لكن عدل سبحانه عن هذا الأسلوب بعد حرف عطف "أو" وجاء بجملة اسمية. وفقا لقانون العطف ينبغي أن يأتي الكلام في غير كلام الله بهذا الشكل (فجاء ها بأسنا بياتا أو قيلولة) أو (فجاءها بأسنا وهم بائتون أو هم قائلون) و«**في التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة**» (آلوسي، د.ت، ص ١٥). وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين دون من اعتاد الكدح و«**إنما خص هذان الوقتان: وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد**» (الزمخشري، ١٩٩٨م، ص ٤٢٤). يمكن أن ننظر إلى هذه الآية من الوجهة الأخرى وهي أن الله تعالى لم يقل ليلاً ونهاراً كأنّه للإشارة إلى أخذ العذاب إياهم وهم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون، مغفلون (الطباطبائي، ١٩٩٧م، ص ٩).

والنموذج الآخر من هذا النوع من التناوب يظهر في قوله تعالى: ﴿**قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾ (الأعراف: ١١٥). على أساس قانون العطف ينبغي بإتيان الكلام في غير كلام الله بهذا المنوال (إما أن تلقي وإما أن نلقي) أو بشكل آخر وهو (إما أن تكون أنت الملقي وإما أن نكون نحن الملقين) لكن نرى في هذه الآية عدولاً عن هذا الأسلوب. ففي ضوء قانون العطف يصبح تجانس المتعاطفين أمراً مألوفاً في الأسلوب العربي، فيكون الحكم بوجود ظاهرة عدولية في الآية أمراً مقبولاً لكن ما هو الغرض الرئيسي لهذا العدول؟ إن التأمل الدقيق في بنية المعدول إليه يكشف عن قيم دلالية تحققها ظاهرة العدول إلى صيغة أخرى وهي أن تغييرهم للنظم بتعريف الخبر، وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد ضمير المتصل ينبئ عن رغبتهم في التقديم وقد جاءوا بكلام يسترهب موسى ﷺ ويهول شأنهم في نفسه واعتنوا بما يدل على ذواتهم بزيادة تقرير الدلالة في نفس السامع المعبر عنها في حكاية كلامهم بتأكيد الضمير (الزمخشري، ١٩٩٨م . ص٤٨٦). وإذا كان الكلام مستساغا مع قانون العطف، لم يكشف عن هذه المعاني الدقيقة والخفية في الآية الكريمة.

يوجد النمط الآخر من هذا العدول الذي تحقق مبنى التناوب في هذه السورة وهو قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ (الأعراف: ١٦٦). وفقا لقانون النحو ينبغي أن تأتي الجملة في غير كلام الله بهذه الصورة: (كونوا قردة خاسئة) لامتناع الجمع بالواو والنون في غير ذوي العلم؛ لكن الله تعالى أتى بالجملة (كونوا قردة خاسئين) وعدل عن هذا القانون. لماذا؟ أجيب بأن ذلك على تشبيههم بالعقلاء، أو باعتبار أنهم كانوا عقلاء، أو بأن المسخ إنما كان بتبدل الصورة فقط، وحقيقتهم سالمة (آلوسي، د.ت، ص ٢٢٥).

ومن نماذج التناوب في التراكيب التي وردت في النص القرآني قوله تعالى: ﴿**سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ**﴾ (الأعراف: ١٩٣). فقد حقق التناوب هنا في التركيب النحوي بين الفعلية والاسمية؛ لأن في الآية عدولا عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية والبنية التحتية هنا (أدعوتموهم أم صمتم) وإن الجملة الفعلية (دعوتم) تمثل القاعدة السياقية التي تم العدول عنها؛ فإن إيثار الجملة الفعلية هذه ابتداءاً فيه إشعار ضمني بتوجه السياق إلى بناء نسق متتابع من الأفعال الماضية، ويأتي قانونا المعادلة والعطف ليعززا هذه الفكرة لدى المتلقي؛ ففي ضوء هذين القانونين يصبح تجانس المتعاطفين أمراً مألوفاً في الأسلوب العربي، فيكون الحكم بوجود ظاهرة عدولية في الآية أمراً مقبولاً. لكن ما هو الغرض الرئيسي لهذا العدول؟ فالجملة الاسمية يلجأ إليها المبدع للتعبير عن الحالات التي تحتاج إلى التوصيف والتثبيت، ذلك أن الاسم يخلو من الزمن، ويصلح للدلالة على عدم التجدّد وإعطائه لونا من الثبات أما الفعل فيدخل فيه عنصر الزمن والحدث، بخلاف الاسم الذي يخلو من عنصر الزمن، ولأنّ عنصر الزمن داخل في الفعل، فهو ينبعث في الذهن عن النطق بالفعل، وليس كذلك الاسم الذي يعطي معنى جامدا ثابتا، لا تتحدد خلاله الصفة المراد إثباتها (درويش، د.ت. ص ١٥٣).

وقيل: إن جملة (سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ) استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع، أي مستو عليكم في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم؛ فإنه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية، وكان الظاهر الإتيان بالفعل فيما بعد أَمْ لأن ما في حيز همزة التسوية مؤول بالمصدر، لكنه عدل عن ذلك للإيذان بأن أحداث الدعوة مقابل باستمرار الصمات، وفيه من المبالغة ما لا يخفى (آلوسى، د.ت، ص ٥٦٣). وقيل أيضا: وقع قوله (أم أنتم صامتون) معادل (أدعوتموهم) مع اختلاف الأسلوب بين الجملتين بالفعلية والاسمية، فلم يقل: (أم صمتم) لأنه رأس الآية أي لمجرد الرعاية على الفاصلة وأن الجملتين بين البليغ سيان وهذا العدول إلى الاسمية من مقتضى الفصاحة لأن الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ص ٢١٩).

والنموذج الآخر للعدول في التراكيب قوله تعالى: ﴿**فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**﴾ (الأعراف: ٣٠). ويلاحظ أن السياق يعبر عن قضية الهداية بصيغة الماضي (هدى) وعن قضية الضلال بصيغة الاسم (الضلالة) فهل لهذا المنحى الأسلوبي ما يبرره؟ نقول: ولم يقل عنهم: وفريقًا أضل؛ لأن فيه إشارة إلى استحقاقهم الإضلال لهم من الله لتوليهم الشيطان «**وبذلك يظهر حسن موقع لفظ "حق" هنا دون أن يقال أضله الله لأنّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم وليس تغيير الأسلوب بين "فريقاً هدى" وبين "فريقا حق عليهم الضلالة" تحاشياً عن إسناد الإضلال إلى الله**» (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ص ٩١).

٤ ـ ٤ ـ التناوب في الجملة

من الواضح في هذا القسم أن الجمل في المستوى السطحي ستنوب عن الجمل في المستوى العمقي من قبيل التضمين، بمعنى أنها تضمنت جملا محذوفة سدت مسدها في السياق. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ**﴾ (الأعراف:

١٤٢) إذا أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة، نرى أن الله تعالى بدل أن يقول: (وواعدنا موسى أربعين ليلة) قال: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) ما الفرق بين هذين القولين؟ نقول: إن الله تعالى أمره بصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلّم فيها لهذا نلاحظ أن الله تعالى فصل جملة (وأتممناها بعشر) وهو ضم عشرة إلى ثلاثين لتصير بذلك أربعين، ليبين كيفية نزول التوراة على موسى عليه السلام (الزمخشري، ١٩٩٨م، ص ٥٠٠). وقيل: جيء به رمزا إلى أنه لم يقع في تلك العشر ما يوجب الجبر (آلوسي، لاتا، ص ٣٣٦) إذا دققنا النظر إلى التناوب في الجمل، يظهر لنا أن هذا النمط من التناوب يأتي كثيرا ما في الجمل الكنائية والتي أبلغ من التصريح.

نلاحظ في مواضع عديدة في السور الكريمة أن القرآن الكريم استعان بهذا الأسلوب؛ لأنه تعجز الحقيقة أو البنية العميقة كثيرا ما أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ**﴾ (الأعراف: ١٤٩). إن الأصل الافتراضي المتخيل في جملة (ولما سقط في أيديهم) هو (ولما ندموا) أو بعبارة أخرى إن الأصل بين قطبي الظاهرة العدولية هو (المعدول عنه: ولما ندموا) و(المعدول إليه: ولما سقط في أيديهم) ولكن ما هو الغرض لهذا العدول؟

إن القرآن الكريم قام بإتيان هذه البنية لتحويل كلامه إلى عمل فني متميز ويجعل لغة القرآن سمةً بارزةً. وأما تركيب (ولما سقط في أيديهم) فقد ورد ذكره في القرآن الكريم مرة واحدة وفعل (سقط) مسند إلى (في أيديهم)، وهو من باب الكناية؛ لأن هذه الجملة تصوّر لنا شدة ندم قوم موسى عليه السلام وحسرتهم على عبادة العجل، ومن شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمًّا، فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها (الزمخشري، ١٩٩٨م، ص ٥١٠) فإن العادة أن الإنسان إذا ندم على شيء عضَّ بفمه على أصابعه فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم، فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

والتركيب الكنائي الآخر الذي يحقق تناوبا في هذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿**وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ (الأعراف: ٧٢). إن الأصل اللغوي في معاجم اللغة حول كلمة (دابر) وهي من الدبُر نقيض القبُل والدُّبُر من كل شيء عقبُه والدَّبرُ خلفُ الشيء والدَّبرِ: الموت ودابر الرجل: مات (الزبيدي، لاتا: «دبر»). فقطع دابر القوم أي استوصل، قال الأصمعي وغيره، الدابر: الأصل (المصدر نفسه. «دبر»).

إذا نظرنا إلى كتب التفسير نرى أنها ذهبت إلى ما ذهبت إليه معاجم اللغة من حيث إن معنى (قطعنا دابرَ الذين كذبوا بآياتنا) كناية عن الاستئصال. والدابر الآخر أي أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم. واستدل به بعضهم على أنه لا عقب لهم (آلوسي، د.ت، ص ١٩٥). قال الطباطبائي: «**الآية كناية عن إهلاكهم وقطع نسلهم فإن الدابر هو الذي يلي الشيء من خلفه**» (الطباطبائي، ١٩٩٧م، ص ١٨٤).

إن البنية العميقة لهذا التركيب هي (استأصلنا القوم الذين كذبوا) لكن نرى في البنية السطحية (قطعنا دابرَ الذين كذبوا). فما هو الغرض في هذا العدول؟ قد اشتق القرآن الكريم من معنى (استئصال القوم) تركيب (قطعنا دابر المكذبين) ليدل به على العقاب الذي ينزله الله تعالى بالقوم الكافرين الذين وسمهم بالكافرين في الآية وهو استئصال من الأصول وهذا التركيب الكنائي أبلغ من التصريح وأولى لأداء معنى الاستئصال حيث يرينا أن القوم الكافرين لم تبق لهم باقية.

ومن الأمور الأخرى التي تدل على التناوب في الجمل، ما يرتبط بأسلوب الشرط أو شبهه. فإن كلمة الشرط تطلب جملتين، يلزم من وجود مضمون أولاهما فرضا حصول مضمون الثانية، وأدوات الشرط كلمات وضعت لتدل على التعلق بين الجملتين، والحكم بسببية أولاهما ومسببية الثانية (ابن هشام، د.ت، ص ٢٧١، ٢٧٢). وهذا يعني أن الشرط سبب والجواب مسبب عنه. فكثيرا ما

نرى أن القرآن الكريم يحذف جواب الشرط فيجعل الدليل نفس الجواب وهذا الأمر جائز إن كان في الكلام ما يدل عليه. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠). ليست هذه الآية الكريمة من باب أسلوب الشرط بل هي شبيهة بالجملة الشرطية وإذا أمعنا النظر فيها نشاهد أن القرآن الكريم حذف جواب الشرط أو خبر الموصول الرئيسي وهو (فأولئك هم الموجورون) وجاء بالجملة الأخرى مكانه وهي (إنا لا نضيع أجر المصلحين) لكن ما هو الغرض من هذا التناوب؟ كما أسلفنا الذكر، إن جواب الشرط أو شبهه يجب أن يكون مسببا عنه وهذا الأمر هو الدليل الرئيسي لوجود التناوب في الآية الكريمة لأن جملة (إنا لا نضيع أجر المصلحين) لا يمكن أن يكون مسببا عن الموصول وإعادة الشرط أو المبتدأ بمعناه لتأكيد الخبر من أجل رسوخه في الذهن هو الدليل الرئيسي لهذا التناوب. فإن المصلحين هم الذين يمسكون بالكتاب وطوي ذكرهم اكتفاء بشمول الوصف لهم وثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ص ١٦٤).

وشبيه بهذا الباب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٥٣). هذه الآية الكريمة نمط آخر من أنماط التناوب في الجملة حيث تأتي جملة جواب الشرط بدل أخرى فلم يقل الله تعالى: (غفرهم الله) فلم يخصص المغفرة والرحمة بهم بل جعلها عامة، ولم يواجههم بغفران ذنوبهم، وإنما ذكر صفة المغفرة والرحمة فعسى أن تنالهم، ففي حذف الخبر (غفرهم الله):

الف) اتساع صفة المغفرة والرحمة ولم يقيدها بهم بل هي شاملة عامة.

ب) لم يواجههم صراحة بالمغفرة، وإنما ذكر صفة المغفرة والرحمة فعسى أن تنالهم وذلك ليبقوا في حالة طاعة وخشية من معصية أخرى (السامرائي، ٢٠٠٣م. ص ١٨٤).

٥ـ الخاتمة

تثبت دراسة التناوب فى سورة الأعراف أن ظاهرة التناوب في الأفعال أكثر انتشاراً في السورة قياساً مع الأنماط الأخرى وهو يأتي إما بتضمين الفعل معنى آخر وإما بتضمين الفعل الذي لا يأتي مع حرف الجر المختص به، وهذا التنوع الأسلوبي يحقق معنيين في آن واحد ولا يلغي معنى الفعل المنوب عنه. أمّا التناوب في الاسم فالغرض منه ورود اسم في الآية بديلا عن نظير له؛ فتناولنا عددا من تلك الأسماء بالتحليل والدراسة، حيث تحقق لنا بأن التدبّر في هذه الأسماء النائبة قد هدانا إلى اختصاص كل منها بدلالة أو أكثر من الدلالات الهامشية التي تجعله تمتاز من الألفاظ الأخرى التي تشاركه في المعنى العام وأن تكون هناك مشابهة أو علاقة بين الاسم النائب الوارد في السياق والآخر المنوب عنه والتي أكثرها يقوم على الترادف كإقامة اللفظ مقام مرادفه والعموم والخصوص.

أمّا التناوب في الصيغ فهو النوع الثالث من التناوب في هذه السورة المباركة والذي جاء أكثره في شكل العدول من الاسم إلى الجملة ومن المسوغات الأسلوبية التي نتكئ عليها في افتراض وجود ظاهرة التناوب في هذا النوع، وقوع طرفي بنية العدول تحت سلطة قانون العطف، وهو من المرجحات الأسلوبية للتماثل الصيغي بين الدوال اللغوية. أمّا التناوب في الجمل فالغرض منه إقامة جملة مقام جملة أخرى وهو النمط البديع في نوعه ولا يأتي إلا للتوسع في المعاني التي لا نراها في البنية العميقة؛ المعاني الدقيقة التي يرينا السياق والبنية السطحية والمستوى الفني من الكلام. كان التوسع في المعاني، نقطة مشتركة من جمالية التناوب في الآيات الكريمة بأسرها، أما الغرض الرئيسي من التناوب في الآيات يختلف باختلاف المعاني والسياقات التي وردت فيها الآية وأيضاً كانت علاقة الترادف واللزوم بين الكلمة النائبة والمنوب عنها، أكثر انتشاراً بين الآيات الكريمة في السورة المباركة.

الهوامش

❖ المراد بالأعراف أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار وهو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنة وأهل النار جميعاً (الطباطبائي، ١٩٩٧م، ص ١٢٣).

❖❖ النحو التوليدي هو من المباحث الهامة التي ينادي بها التحويليون وهدف هذه النظرية التي عرضها تشومسكي في كتابه syntactic structures "الأبنية النحوية" الذي صدر سنة ١٩٥٧م قد تمثل بصورة أساسية في شرح التركيب، أي في تعيين القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجمل (عبد اللطيف، ٢٠٠٠م، ص ٣٤).

❁❁❁

المصادر والمراجع

❁ ***القرآن الكريم***

١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. (١٩٩٧م). ***تفسير القرآن العظيم***. (تحقيق سامي بن محمد السلامة). الجزء الأول والثالث. المملكة السعودية: دار الطيبة للنشر والتوزيع.
٢. ابن منظور، محمد بن مكرم. (د.ت). ***لسان العرب***. بيروت: دار صادر.
٣. ابن هشام، عبدالله. (د.ت). ***مغني اللبيب عن كتب الأعاريب***. (علّق عليه أبو عبدالله الجنوبي). (ج٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٤. آلوسي، محمود أبو الثناء. (د.ت). ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني***. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٥. الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٧٨م). ***دلائل الإعجاز***. (تحقيق محمد رشيد رضا). بيروت: دار المعرفة.
٦. حسام الدين، كريم زكي. (٢٠٠١م). ***أصول تراثية في اللسانيات الحديثة***. (ط٣). القاهرة: الرشاد للطباعة.
٧. درويش، أحمد. (د.ت). ***دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث***. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
٨. الزبيدي، محمد مرتضى. (١٩٧٢م). ***تاج العروس من جواهر القاموس***. (تحقيق إبراهيم الترزي). كويت: مطبعة الكويت.
٩. الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. (١٩٩٨م). ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل***. (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوّض). (ج ٢و٣). الرياض: مكتبة العبيكان.
١٠. سامح ربابعة، موسى. (٢٠٠٣م). ***الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها***. كويت: جامعة الكويت.
١١. السامرائي، فاضل صالح. (٢٠٠٣م). ***معاني النحو***. (الجزء الأول). القاهرة: شركة العاتك لصناعة الكتاب.
١٢. سليمان، فتح الله أحمد. (٢٠٠٨م). ***الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية***. القاهرة: دار الآفاق العربية.
١٣. شفيعي كدكني، محمد رضا. (١٣٨٦هـ.ش). ***موسيقي شعر***.(چ ١٠). تهران: موسسه انتشارات آگاه.
١٤. الصابوني، محمد علي. (١٩٨١م). ***صفوة التفاسير***. (ج٣). بيروت: دار القرآن الكريم.
١٥. الطباطبائي، محمد حسين. (١٩٩٧م). ***تفسير الميزان***. (ج٨). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
١٦. عبد اللطيف، محمد حماسة. (٢٠٠٠م). ***النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي ـ الدلالي***. بيروت: دار الشروق.
١٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. (٢٠٠٦م). ***الجامع لأحكام القرآن***. بيروت: مؤسسة الرسالة.
١٨. محمود خليل، إبراهيم. (٢٠١١م). ***النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك***. عمان: دار المسيرة.

١٩. المنصوري، أحمد المهدي. (٢٠١٣م). النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقها في النحو العربي. ***مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات***. العدد ٢٩.

٢٠. ميشال، زكريا. (١٩٨٦م). ***الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية)***. د.م: المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی